2 – إرادة الحياة لأبي القاسم الشّابي (دراسة في تحليل الخطاب)

La volonté de vivre par Abu al-Qasim al-Shabbi

(une étude en analyse du discours)

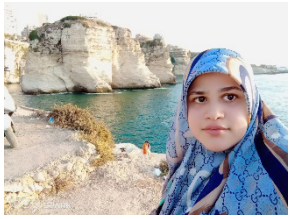

بقلم الدكتورة :آمنة إبراهيم شكر

طالبة دكتوراه في كلية الآداب والعلوم الانسانية/قسم اللغة العربية وآدابها/جامعة الجنان

Written by: Dr. Amina Ibrahim Shukr

PhD student in the Faculty of Arts and Humanities / Department of Arabic Language and Literature / Al-Jinan University

aminachoker71@gmail.com

تاريخ القبول: 2024 /1/21 تاريخ القبول: 7/ 2024/1

مستخلص البحث :

يسعى هذا البحث إلى دراسة قصيدة «إرادة الحياة» لأبي القاسم الشّابي تحليلًا وتفسيرًا وربطًا بالثّقافة المقاومة. وقد قام هذا البحث على ثلاثة أقسام رئيسة تمّ الوقوف فيها عند ثقافة الشّاعر ورؤيته إلى العالم، بعد أن سُبقت هذه الأقسام بمهاد نظريّ حول مفهوم الخطاب، وابتُدئ كلّ قسم منها بدراسة نظريّة حول الحضور المعالج ففي القسم الأوّل جرى تناول: حضور المتكلّم في القصيدة، وفي القسم الثّاني جرت دراسة: حضور المخاطب، أمّا القسم الأخير فقد توزّعتها دراسة حضور الموضوع على الشّكل الآتي: أوّلًا: حضور الموضوع من خلال الموضوع نفسه، ثانيًا: حضور الموضوع من خلال الزّمان، ثالثًا: حضور الموضوع من خلال دراسة المكان، وأخيرًا عُرضت خاتمة الدّراسة

الّتي أُشبعت بالخلاصات والنّتائج وقد اعتمد الباحث في كتابته منهج تحليل الخطاب.

كلمات مفتاحيّة: الخطاب، رؤية، حضور المتكلّم، حضور المخاطب، حضور الموضوع، الزّمان، المكان.

Summary:

Cette recherche vise à étudier le poème La volonté de la vie d'Abu al-Qasim al-Shabi dans l'analyse, l'interprétation et le lien avec la culture de la résistance. Cette recherche s'est basée sur trois sections principales dans lesquelles la culture du poète et sa vision du monde, après que ces sections ont été précédées d'un paillage théorique sur le concept de discours, et chaque section a commencé par une étude théorique sur la présence du processeur dans la première section a été abordée : la présence du locuteur dans le poème, et dans la deuxième section a été étudiée : la présence du destinataire, la dernière section a été distribuée par l'étude de la présence du sujet comme suit : Premièrement : la présence du sujet à travers le sujet lui-même, deuxièmement : la présence du sujet à travers le temps, troisièmement : la présence du sujet à travers l'étude du lieu, et enfin présenté la conclusion de l'étude, qui était saturée de conclusions et de résultats, et le chercheur a adopté par écrit la méthode d'analyse du discours.

Mots-clés : parole, vision, présence de l'orateur, présence du destinataire, présence du sujet, temps, lieu.

مقدّمة:

الخطاب

شاع مصطلح الخطاب في فروع المعرفة كافة، فارتبط اسمه بالنّظريّة النّقديّة والثّقافيّة والأدبيّة، حتّى بات يترك من دون تعريف في كثير من الأحيان، سواء أكان استخدامه في النّصوص الأدبيّة أو غير الأدبيّة، غير أنّنا سنتتبّع في بحثنا هذا سبيلًا نسعى به للخروج ببعض التّعريفات والدّلالات الممكنة للخطاب.

إنّ امتلاك معرفة بالمنظومة المفاهيميّة الخاصّة بالخطاب (discours) يقتضي أن

نعود إلى المرحلة التأسيسيّة الّتي انطلقت منها الحركة النّقديّة الحداثيّة الّتي اتّخذت العلميّة مرجعًا لها. وقد قامت هذه المرحلة التّأسيسيّة على نشاطين أساسيين: النّشاطِ السّوسيريّ والنّشاطِ الشّكليّ الرّوسيّ.

بما يعني أنّ مصطلح الخطاب كان عائدًا إلى مرحلة ما بعد الحداثة وهي مرحلة من مراحل نضوج الثّقافة النّقديّة في العالم العربيّ، والجدير ذكره أنّ مصطلح العمل الأدبيّ كان ناجمًا عن اختراق الحقول المعرفيّة المتنوّعة للأدب بما يجعل النّتاج الأدبيّ عملًا، ثمّ جاءت مرحلة الحداثة الّتي ارتكزت على العقل العلميّ محاولة أن تكفّ يد هذه الحقول عن الأدب، فعاينته من خلال نسيجه اللّغويّ مختارة مصطلح النّصّ المعرّب من خلال كلمة (texte). ومصطلح النّصّ لم يصمد طويلًا، مع مجيء مرحلة ما بعد الحداثة الّتي استبدلته بمصطلح الخطاب، والخطاب تعريب لكلمة (discours)، وهو يتعدّى النّصوص الإبداعيّة إلى ما عداها مثل: النّكتة، والإشاعة، والحزّورة.

إنّ تحديد موضوع الخطاب هي المسألة الّتي لازمت تحليل الخطاب لأنّها كانت مرتبطة دائمًا بمفهوم الخطاب. مع بداية سبعينيات القرن المنصرم وجدنا أنّ النّشاط التّنظيريّ للخطاب كان أمام ثلاثة تصوّرات مختلفة: تصوّر دعا إلى توسيع مجال الدّراسة اللّسانيّة، بما يسمح بإدخال الخطاب ضمن موضوعها، وتصوّر يرفض ذلك مطلقًا، وتصوّر ثالث يدعو إلى خلق علم جديد للخطاب على غرار اللّسانيّات، وما يسترعي الانتباه من خلال هذه التّصوّرات الثّلاثة أنّ تحليل الخطاب واقع بين تجاذب دائرتين أو تقاطعهما: دائرة اللّسانيات ودائرة العلوم الإنسانيّة.

وهذا ما يجعل الجماليّة والتّواصل في موضع تجاذب وتقاطع مع تحليل الخطاب الّذي قد يصبح أكثر تعقيدًا وصعوبة أيضًا. غير أنّ هذه الحال لم تستمرّ في أواسط سبعينات القرن الماضي. ولم تعدِ المشكلاتُ الّتي تواجه تحليل الخطاب قائمةً على صعوبة تحديد موضوعه. فقد شهدت هذه المرحلة تبلور الاتجاهات الخاصّة بالخطاب. ونجد أنفسنا مع فوكو **Michel Foucault** [1] وقد نظر إلى الخطاب على أنّه شبكة معقّدة من العلاقات الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة. وإذا كان هذا التّحديد قد قطع حبل السّرّة الّذي كان

1- فيلسوف فرنسي،يعتبر من أهمّ فلاسفة النّصف الأخير من القرن العشرين، تأثّر بالبنيويّين ودرس وحلّل تاريخ الجنون في كتابه «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكيّ» الموسوعة الحرّة، **ميشال فوكو** – ويكيبيديا (wikipedia.org)، تسجيل الدّخول 2022-10.

يربطه بأمّه اللّسانيات من خلال شبكة العلاقات المعقّدة فإنّه لا يقدّم نفسه عالمًا مستقلًّا فحسب، ولكنّه يشير بشكل واضح إلى موضوع تحليل الخطاب أيضًا، ذلك الموضوع الّذي يتشابك فيه الاجتماعيّ والسّياسيّ والثّقافيّ.»[1]

الإشكاليّة:

1- كيف حضر كلّ من المتكلّم والمخاطب في الخطاب وما دور الثّقافة في تحديد العلاقة بينهما؟

2- أين تكمن أهمّيّة حضور الموضوع وما مدى علاقته بالثّقافة العربيّة المقاومة؟

الفرضيّات:

1- قد يتلاحم المتكلّم والمخاطب في ما بينهما عبر الثّقافة وهما جوهرتان أساسيّتان لا يمكن لتحليل الخطاب أن يكتمل من دون التّعرّض إليهما.

2- يمكن أن يكتسب الموضوع أهمّيّة خاصّة في الخطاب لأنّه لا خطاب بلا موضوع ولا يمكن للموضوع إلّا أن يكون مرتبطًا بالثّقافة العربيّة المقاومة.

أ-حضور المتكلّم في الكلام

إنّ منهج تحليل الخطاب يفرض علينا عدمَ البحث في الجانب السّيريّ من حياة المتكلّم لنتعرّف إلى حضوره داخل النّصّ. فذاتيّة الكاتب بعيدة كلّ البعد عن هذا الحضور وليست هدفًا في الخطاب، إلّا أنّ المتكلّم هو الّذي يتبوّأ المكانة الأولى في كلامه «لأنّه هو الّذي تلفّظ به من أجل التّعبير عن مقاصده»[2] «فالمعنى مرتبط بما ينويه وما يقصده»[3] وذلك بغيةَ التّأثير في المخاطب ليبنيَ من خلاله شخصيّة ثقافيّة واعية على الصّعيد الفكري، والدّينيّ، والسّياسيّ، والاجتماعيّ أو ربّما الاقتصاديّ. لهذا نجد المتكلّم يحدّد المتلقّي بناء على قصديّته، فالمتكلّم لغيره إنّما يصبح «متكلّمًا له بأن يقصده بالكلام دون غيره، ويكون آمرًا له من مقصده بالكلام وأراد منه المأمور به»[4]

1- زيتون، علي، 2007م، **عاشوراء وخطاب المقاومة الإسلاميّة، معهد** المعارف الحكميّة، بيروت، ط1.
2- الشّهري، عبد الهادي ظافر، 2004م، **استراتيجيّات الخطاب**، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، ط1، ص45.
3- بوجادي، خليفة، 2009م، **في اللّسانيّات التّداوليّة** (مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربيّ القديم)، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، ص162.
4- ابن قدامة، موفّق الدّين، 1979م، **المغني**، تحقيق: عبداللّه التّركيّ وعبد الفتّاح الحلو، دار عالم للكتاب، بيروت، ط3، ص 71-70.

من هنا تبرز أهمّيّةُ استجلاء حضور المتكلّم في خطابه، غير أنّنا لا نريد من كلّ هذا أن نتعرّف إلى شخصيّة المتكلّم الذّاتيّة «ولكن من أجل اختبار انسجامها مع القصديّة الأساسيّة الّتي ينبري الخطاب لإشاعتها من جهة، واكتناه مدى فعل حضورها في إذكاء تلك القصديّة وتقوية فعلها من جهة ثانية»[1]

حضور المتكلّم إجرائيًّا:

إنّ مادّة هذا البحث هي قصيدة «إرادة الحياة» للشّاعر التّونسيّ الكبير أبي القاسم الشّابي الّتي ألّفها قبل عام على وفاته بمرض القلب وقد احتضنت هذه القصيدة من مطلعها حتّى نهايتها حضورًا ثقافيًّا لكاتب لا يسعى إلى إبراز شخصيّته بل يحاول إشاعة حضوره ليبلغ وعيًا بالأمور الفكريّة والاجتماعيّة والدّينيّة والسّياسيّة فينتج عن هذا الإدراك خطابٌ ناجحٌ يحاكي فئة من الجماهير المرتبطة به عبر الزّمن. والجدير ذكره أنّ حضور المتكلّم في هذه القصيدة الخالدة ينقسم إلى قسمين الأوّل فيهما حضور مباشر والآخر هو حضور مضمر وكي لا نطيل الحديث سنستعرض بعضًا من كلا الحضورين، ففي قول الشّاعر:

كَذلِكَ قَالَتْ لِيَ الكَائِنَاتُ

وَحَدّثَنِي رُوحُهَا المُسْتَتِر[2]

ظهر المتكلّم من خلال ضمير المتكلّم المفرد مصغيًا مستمعًا يحترم نداءات الآخرين، فهذه الأنا المفردة تضع نفسها في موقع المسؤوليّة وتكلّف نفسها مشقّة القيادة فالمسألة عنده تتجاوز الإنسان إلى سائر الكائنات، وتتخطّى المادّيّ إلى المعنويّ، وإذا دققنا في الكلام أكثر وجدنا في اجتماع المخلوقات على توجيه القول للكاتب وحده ثقة ودعوة لهذه الشّخصيّة المثلى إلى إيجاد حلّ للخلاص، وهذا يعني أنّ الخلاص لن يقوم إلّا على يد إنسان موثوق اِطمُئِنّ إليه وسُلّم زمام الأمور وحُدّث بخفايا الأسرار.

ثمّ يستوقف المتلقّيَ في هذه القصيدة حضورٌ لمرسل لم يسعَ نحو الظّهور المباشر بل جاء حضوره مستترًا خلف مسميّات عديدة اتخذت من ضمير المتكلّم أداة للتّعبير عن

1- زيتون، علي، **عاشوراء وخطاب المقاومة الإسلاميّة**، م.س، ص55-54.

2- الشّابي، أبو القاسم، ديوان أبي القاسم الشّابي، تحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط2، 1994م، ص 90.

كلّ مسمّى على حدة، ومن ذلك:

وَدَمدَمَتِ الرِّيحُ بَيْنَ الفِجَاجِ

إذَا مَا طَمَحْتُ إِلى غَايَةٍ

رَكِبْتُ الْمُنَى وَنَسِيتُ الحَذَر

وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وُعُورَ الشِّعَابِ

وَلا كُبَّةَ اللَّهَبِ المُسْتَعِر[1]

فالرّيح (المسمّى الأوّل) هي عنصر من عناصر الطّبيعة تكلّمت فأعلمت وبرز كلامها من خلال ضمير المتكلّم المفرد (طمحتُ/ ركبتُ/ لم أتجنّب) كما يبدو أنّ الاستعانة بهذا العنصر جعلته يتراءى أمام المتلقّي إنسانًا طموحًا لا يهاب الموت ولا يكترث للأزمات، والحقيقة أنّ هذه الاستعانة ليست محض مصادفة لأنّ ما أراد المرسل أن يوصله للمرسل إليه قد تحقّق فعلًا حيث إنّ الرّيح استطاعت أن تعطي الإنسان درسًا لا ينساه في القوّة والجموح، إذًا نصل إلى أنّ ضمير المتكلّم المُستخدم كان ضميرًا غائيًّا غايته أن يسلك السّائرون على طريق الحرّيّة طريق الرّيح الّتي علّمت درسًا كبيرًا من دروس الفروسيّة. غير أنّ هذا الدّرس لم يكتمل حتّى بلّغ الشّاعر الأثر الّذي تركته هذه الرّيح بفؤاده وصدره:

فَعَجَّتْ بِقَلْبِي دِمَاءُ الشَّبَابِ

وَضَجَّتْ بِصَدْرِي رِيَاحٌ أُخَر[2]

فضميرا المتكلّم المضافان إلى القلب ومحلّه (قلبي، صدري) أطلّا علينا إطلالة المتحمّس المتأثّر الحاضن الآمال والمتأهّب لأيّ جديد وكأنّ هذه الإطلالة تنافس الرّيح بقوّتها واشتدادها وحيويّتها ونشاطها، بما يؤكّد أهليّة الشّاعر بامتلاك القدرة على التّضحية والتّفاني في سبيل هذه الأمّة. ولا يمكن للقارئ أن يصل إلى أبعاد هذه التّضحية إلّا بعد الإصغاء إلى ضجيج ثورة أحلّه الشّابيّ على أبياته ليرافق الحياةَ الأملُ بغد جديد مشرق فبدا القول عنده شيئًا والفعل أشياء.

1- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 90.
2- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 91.

وَأَطْرَقْتُ، أُصْغِي لِقَصْفِ الرُّعُودِ

وَعَزْفِ الرِّيَاح وَوَقْعِ المَطَر[1]

وما يلفت في هذا البيت أنّ الإيقاع المنسجم الصّادر عن وقع الكلمات في الأنفس المتلقّية ليس إيقاع رقص أو غناء بقدر ما هو إيقاع تأمّل وانتظار فرج فالمتكلّم يحاول إنشاء جمهور منتظر يصغي معه بصمت وصبر وأناة لعلّه يعزف سيمفونيّة خاصّة تفيد من تجارب من سبقهم في المقاومة وتحرص على إكمال المسيرة. ثمّ تأتي الأرض (المسمّى الثّاني) لتحاور الكاتب بصوت أمّ رؤوم مستخدمة ضمير المتكلّم الخاصّ بها:

وَقَالَتْ لِيَ الأَرْضُ – لَمَّا سَأَلْتُ:

« أَيَا أُمُّ هَلْ تَكْرَهِينَ البَشَر؟»

« أُبَارِكُ في النَّاسِ أَهْلَ الطُّمُوحِ

وَمَنْ يَسْتَلِذُّ رُكُوبَ الخَطَر

وأَلْعَنُ مَنْ لا يُمَاشِي الزَّمَانَ

وَيَقْنَعُ بِالعَيْشِ عَيْشِ الحَجَر

وَلَوْلا أُمُومَةُ قَلْبِي الرَّؤُوم

لَمَا ضَمَّتِ المَيْتَ تِلْكَ الحُفَر[2]

يلعب ضمير الفاعليّة المتكلّم في الفعلين «أبارك» و«ألعن» لعبة المدّ والجزر مع القارئ فتارة يمدح المخاطب وأخرى يذمّه، غير أنّ هذا الفاعل قد استبطن من خلف الكلام فاعلًا آخر بعيدًا هو الشّاعر نفسه الذّي يعلن عن موقفه المراد متّخذًا الأرض الأم وسيلته في ذلك، فهو الأمّ الّتي تصنّف البشر غرباء عنها غير أنّها سرعان ما تنحاز إلى قسم منهم خيِّر مغامر وتعادي قسمًا آخرَ لا يؤثّر ولا يتأثّر، ثابتا لا رأي له، كما أنّها استطاعت أن تجسّد ألمها في البيت الأخير على الرّغم من تباين موقفها من النّاس سواء أحاولوا التّغيير أم رضخوا للعيش الذّليل، لذا يمكننا القول إنّ الكلام الأخير

1- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 91.
2- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 91.

كان رسالة تطمئِن النّاس على مصيرهم وتترك الأوجاع لشاعر عقلانيّ يواجه هموم المرحلة بكلّ شجاعة.

ثمّ يستغلّ الشّاعر صمته في التّعبير عمّا يختلج في نفسه في مقطع يخاطب فيه الدّجى:

سَأَلْتُ الدُّجَى: هَلْ تُعِيدُ الْحَيَاةُ

لما أذبلته ربيع العمر

فلم تتكلّم شفاه الظّلام

ولم تترنّم عذارى السّحر[1]

أصدر الحوار المتبادل بين الدّجى والشّاعر إيقاعًا حزينًا، فالنّقاش الحاصل بينهما لم يستمرّ طويلًا، لأنّ محاولة الشّاعر في الاستفسار عن عودة الحياة قد باءت بالفشل، وتعدّ هذه المحاورة الصّامتة إجابة بحدّ ذاتها، فعندما يخيّم الصّمت على حدث مصيريّ يشكّل ردًّا إعجازيًّا دقيقًا، وقد اتّخذه الشّاعر أداة إنتاجيّة صامتة توجب عليه أن يتطلّع نحو عالم واقعيّ صريح يرى الموت إنتاجًا تربويًّا صادقًا تنبثق منه الحياة.

ولا يختلف الأمر كثيرًا في حديثه مع الغاب:

وَقَالَ لِيَ الْغَابُ في رِقَّةٍ

مُحَبَّبَةٍ مِثْلَ خَفْقِ الْوَتَر

يَجِيءُ الشِّتَاءُ، شِتَاءُ الضَّبَابِ

شِتَاءُ الثُّلُوجِ، شِتَاءُ الْمَطَر[2]

إنّ من يقف بين الغاب والشّاعر يجد نفسه منسجمًا مع الإيقاع الهادئ المنبعث من كلامهما، ذلك أنّ الشّاعر يضمر في نفسه شيئًا خفيًّا يستطيع المتلقي اكتشافه في شتاء الغاب المنتظر، ولا يُفَسَّر هذا الانتظار إلا بأنّه علامة دالّة على إيمان مسلّح باليقين، فشتاؤه عاصف صنديد مفتوح على مقاومة إنسانيّة واعدة تواكبها ثلوج وأمطار لا متناهية

1- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 91.
2- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 91.

تصبو نحو الفعل والعمل لا الكلام.

ب- حضور المخاطب في الكلام:

يتوجّه الخطاب الكتابيّ (رسالة_ مقالة_ خطبة...) إلى النّخبة القارئة العالمة، غير أنّ نوعيّة النّخبة القارئة هي ما يحدّد بلاغة الخطاب، ووجود المعرفة المشتركة بين طرفي التّلقّي تسهّل عمليّة للتّواصل بينهما «فالعلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر الّتي توثّر في تحديد استراتيجيّات الخطاب المناسبة واختيارها؛ إذ يراعيها المرسل دومًا عند إنتاج خطابه، فلا يغفلها وذلك بوصفها محدّدًا سياقيًّا له دور في إنجاح عمليّة التّواصل وتحقيق هدف المرسل من كلامه»[1] ما يعني أنّ أهمّيّة المتلقّي لا تقلّ عن أهمّيّة المتكلّم في عمليّة إنتاج الخطاب. لأنّ المتلقّي يستجيب للنّصّ، فهو المستقبل، وهو الفاهم، وهو السّامع والقارئ، وهو المخاطب والمرسل إليه، ولا يمكن للكاتب إنتاج كلامه إلّا بعد استحضار المتلقّي وهذا ما يسمّى بالحضور القبلي المتلقّي، لكنّ ما سنتطرّق إليه سيكون بعيدًا عن نظريّة التّلقّي، تلك النّظريّة القائمة «على تيارين: «أحدهما معتدل يقرّ المتكلّم بحدّ ما من القصديّة والثّاني متطرّف يختزل القصديّة كلّها بالمتلقي»[2]، إنّ ما يهمّنا من هذه النّظريّة هو قدرة المتكلّم على مخاطبة المتلقي في همومه واهتماماته ومشكلاته وعلى محاورة مستواه الثّقافيّة بوساطة هذا الاستحضار.

حضور المخاطب إجرائيًّا:

إذا الشّعْبُ يَوْمَاً أَرَادَ الْحَيَاةَ

فلا بدّ أن يستجيب القدر[3]

أطلّ الشّاعر علينا في هويّة إنسانيّة مجتمعيّة واضحة من مطلع هذه القصيدة، لم يمهّد لحضورها، لأنّ الموقف لا يحتمل التّمهيد، والحال لا يحتمل التّهيئة، اتخذ قرارًا حاسمًا قارئًا قناعات وقدرات المخاطب مختصرًا الطّريق نحو الكرامة، هكذا قرأ الشّابيّ الشّعب شعبًا جاهزًا لإنجاز مهمّة مصيريّة فلم يكترث للمقدّمات أمام هذه الإمكانيّة المجاهدة

1- الشّهري، عبد الهادي ظافر، 2004م، **استراتيجيّات الخطاب**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لاط، ص 48.

2- هولب، روبرت، 1994، **نظريّة التّلقي**، ترجمة: عزّ الدّين اسماعيل، النّادي الأدبيّ، جدّة، لاط، ص249.

3- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 90.

إنّما أعطى المخاطب الأولويّة في الحضور مبتدئًا كلامه بالشّرط لا بالتّهديد أو التّنكيل أو العويل، شرط يتطلّع به الرّائي نحو تضحيات تُبذل في سبيل استجابة القدر وتحقيق رغبته في الوصول إلى عيش حرّ كريم انطلاقًا من قدرة الجماعة.

ثمّ ظهرت هويّة مخاطب آخر مجهول صوّرها الشّاعر في شخصيّة استثنائيّة متكاملة في العديد من الأبيات ومن ذلك:

وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَاةِ

تَبَخَّرَ في جَوِّهَا وَانْدَثَر

فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْهُ الْحَيَاةُ

مِنْ صَفْعَةِ العَدَم المُنْتَصِر

وَمَنْ يتهيب صُعُودَ الجِبَالِ

يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَر[1]

في الواقع لم يكن هذا المخاطب المجهول مخاطبًا عاديًّا بل كان الحكاية الّتي تُروى، فهو النّاس وهو الملأ والجمهور الّذي يستقبل ثقافتين: ثقافة المقاومة والرّفض والثّبات وثقافة الهزيمة والجبن والتّخلي، وشتّان بين هذه وتلك، فهمّ الشّاعر كبير مبنيّ على قوّة لا على ضعف، قوّة جمهور مقاوم ينهض فيعانق الحياة متلقّيًا صفعاتها ومشاقّها صابرًا على أوجاعها وأعبائها صامدًا في وجه رياحها، ولا يمكن لهذا النّهوض أن يكون إلّا رؤيويًّا مشبعًا بثقافة مخاطب قرأ تاريخ العدو وصمود الصّديق فهاب الهزائم واستمسك بعروة الانتصار الوثقى.

غير أنّ همّ الشّاعر لم يكن محصورًا بالانتصار وحده وهذا ما نجده في توجّهه إلى متلقيين جديدين أحدهما قد خاطبه على أنّه متلقٍ مجهول ثمّ أتى على ذكره في الأبيات اللّاحقة بمسمّى قريب «الجميع»، والآخر تحفّظ عليه وترك مفاتيح استكشافه للقارىء الحاذق من خلال الأبيات الآتية:

وَيَفْنَى الجَمِيعُ كَحُلْمٍ بَدِيعٍ

1- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 90.

تَأَلَّقَ في مُهْجَةٍ وَانْدَثَر

وَتَبْقَى البُذُورُ التي حُمِّلَتْ

ذَخِيرَةَ عُمْرٍ جَمِيلٍ غَبَر[1]

ولعلّ المدخل الأوّل إلى عالم المتلقّي الثّاني كان متمثّلًا في الحضور اللّافت لكلمة «البذور»، حيث تعالت هذه اللّفظة عن مدلولها الحقيقيّ واختصرت جهدًا كبيرًا في إيضاح هواجس المرسل، ولا يخفى على أيّ منّا أنّ هذا الهاجس يعيدنا إلى حيث البداية (البذور) ويبعدنا عن النّهاية (الموت)، فالكاتب يحوك بداية تلو أخرى ولا ينتظر خاتمة لها لأنّه لا يرى نهاية توقف زحف هذه البداية، كما يذكّرنا بقصّة روتها العجوز اليهوديّة «روت»[2] عن طفولتها الّتي كلّفت فيها في تقديم باقة من الورود في أثناء استقبال «تشرشل» في احتفال ضخم أقيم في حديقة «تل أبيب» وذلك لدعمه قيام دولة اليهود في فلسطين، وفي هذا اليوم تمّ قطع بعض أشجار الصّنوبر من جنوب لبنان ووضعها في تلك الحديقة لتجميلها، طال خطاب «تشرشل» يومها ممّا اضطر تلك الطّفلة إلى الاستلقاء على إحدى هذه الأشجار الّتي سقطت وبان جذعها المقصوص، بما دفع المحتفى به أن يعلّق قائلًا: «أخشى أن تسقط دولتكم يومًا ما فلا شيء ينبت هنا بدون جذور»، وممّا يجدر ذكره هنا أنّ هذه المقولة عبرت تاريخ الصّهاينة بلا حدود وشكّلت وصمة عار ترافقهم حتّى الأزل، فتوقّف تشرشل عند الجذور ليس وقفة موضوعيّة هي وقفة جدّدها الشّاعر باستحضار أصل الجذور أي «البذور» بما تحمله من إشارة لجيل جديد ينمو ويتحوّل جذورًا تمتدّ في الأرض متشبّثة بترابها فلا تغادرها إلّا بزرع جديد يضمن بقاءها.

ت-حضور الموضوع:

تشكّل اللّغة أداة لعمليّة التّواصل الّتي يستخدمها الإنسان مع محيطه، ولا يقوم هذا التّواصل إلّا بموضوع يضمن استمرار عمليّة التّفاعل بينهما. غير أنّ مفهوم القدرة التّواصليّة قد يتحقّق عن طريق اللّغة أو عبر وسائل أخرى غير لغويّة، ولا بدّ للمتكلّم

1- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 92.

2- لا شيء ينبت هنا بدون جذور .. قصة حقيقية ترويها عجوز يهودية (ida2at.org) ، تسجيل الدّخول 10-2023

من أن يستحضر «السّامع في أثناء إنتاج عبارات لغته ... وإن كان استحضاره يتفاوت باختلاف موقف التّواصل وملابساته ونمط الخطاب النّاتج»[1] هذا النّمط يمكن أن يتحدّد مستندًا إلى مجموعة معايير هي:«المجال، القصد، الآليّة، القناة»[2] وما يهمّنا في دراستنا هاهنا نمط الخطاب من حيث المجال لأنّه يضمّ موضوعات عديدة مختلفة ومتنوّعة في المجالين الأدبيّ أو العلميّ. ولا يمكن لملامح هذه الموضوعات أن تتجلّى إلّا من خلال دراسة حضورها، فحضور الموضوع يصير ظاهرًا إذا برز فيه الزّمان والمكان. فالزّمان الرّكن الأوّل من الأركان الّتي تمدّ حضور الموضوع بالطّاقة، ليشكّل حصيلة معرفيّة استثنائيّة له «فعدا الحديث عن زمن طبيعيّ له مقاييسه، وزمن نفسيّ خارج عن تلك المقاييس، وثالث أدبيّ معدّل عن الزّمن الطّبيعيّ بناء على رؤية الأديب إلى العالم، نجد زمنًا مرتبطًا بهذه الفلسفة أو تلك»[3]. ومهما يكن من أمر، فإنّ دراسة الزّمن هي «الّتي تكشف عن القرائن الّتي يمكن من خلالها الوقوف على كيفيّة إشغال الزّمن في العمل الأدبيّ»[4] لأنّه زمن يختلف عن بقيّة الأزمان ويتدخّل في توجيه الموضوع وتحديد أموره ووظيفته الأساسيّة الّتي يؤدّيها في الكلام. والدّخول إلى عالم التّرسّل لا بدّ من أن يحتضن الزّمن مكوّنًا أساسيًّا من مكوّنات الخطاب فيه ليقرأ هواجس المرحلة وهمومها.

أمّا المكان فقد كان الرّكن الثّاني الأساسيّ الّذي يتناوله حضور الموضوع، فلا يقوم عمل أدبيّ بلا مكان لأنّ «العمل الأدبيّ حين يفتقد المكانيّة فهو يفتقد خصوصيّته»[5] ولهذا أولاه الباحثون اهتمامًا كثيرًا، واعتنوا به اعتناء جماليًّا لاسيّما في الرّواية والشّعر، غير أنّ مكان الخطاب كان مختلفًا عن المكان الأدبيّ فلم يكن الإطار الّذي تقع فيه الأحداث فحسب بل كان مدخلًا تاريخيًّا ثقافيًّا استثنائيًّا يتبنّى حضور الموضوع. ولنفهم جيّدًا وظيفة الموضوع لا بدّ من أن ندرس الأزمنة والأمكنة دراسة إجرائيّة من خلاله.

1- المتوكّل، أحمد، 2016م، **المنهج الوظيفيّ في البحث اللّسانيّ**، دار الأمان، الرّباط، ط1، ص27.

2- المتوكّل، أحمد،2012م، **اللّسانيّات الوظيفيّة المقارنة(دراسة في التنميط والتّطوّر)**، دار الأمان، الرّباط، ط1، ص77.

3- زيتون، علي، **عاشوراء وخطاب المقاومة الإسلاميّة**، م.س، ص126.

4- صدّام، وجدان، ياسين، معتزّ، **مستويات بناء الزّمن في شعر بشّار بن برد**، مجلّة دراسات البصرة والخليج العربيّ، العراق، عدد 17، 2014م، ص266.

5- باشلار، جاستون، 1984م، **جماليّات المكان**، ترجمة: غالب هلسا، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، لبنان، ط2، ص6.

حضور الموضوع إجرائيًّا:

إنّ موضوع قصيدة الشّابيّ هو «إرادة الحياة» وحبّها وتحرير البلاد من المستعمر الغاشم، ولو بُذل في سبيله الغالي، لأنّ الّذي يطمح إلى العيش الكريم لا بدَّ أن يتجشّم المصاعب، وأن يكون من أبناء الطّموح (المناضلين) لا القانعين (الميتين) فالطّبيعة الأم تكره كل مستكين خانع وقد عبّر الشّاعر عن هذا بقوله:

ولا بد لليل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر[1]

وإذا كانت الإشارة إلى اللّيل سريعة ووجيزة فإنّ الدّلالة الّتي يحملها لا يمكن أن نمرّ عليها مرور الكرام، ذلك أنّ في الإشارة إلى البعد الزّمانيّ زمانًا زائلًا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالبعد الدّلاليّ الّذي يصوّر الاستعمار بكلّ مضامينه ووجوده أمّا القيد فهو فعل هذا الاستعمار، وإذا كانت القصديّة الأساسيّة الّتي يقوم عليها هذا الفعل هي الظّلم فإنّ هذه القصديّة متّصلة بدعوة صريحة من الشّاعر إلى تحطيم القيود وتحرير الأمّة من المستعمر الغاصب وتحرير النّفس من جبنها وخضوعها.

يلي هذا الزّمان أزمنة أخرى ترتبط بالموضوع وتتعلّق بالفصول: ليالي الخريف، الشّتاء، الرّبيع، وقد تموضعت هذه الأزمنة في الأبيات الآتية:

وفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الخَرِيفِ

مثقلة بالأسى والضّجر

يَجِيءُ الشِّتَاءُ، شِتَاءُ الضَّبَابِ

شِتَاءُ الثُّلُوجِ، شِتَاءُ الْمَطَر

وجاءَ الربيعُ بأنغامه

وأحلامهِ وصِباهُ العطِر

وقالَ لَهَا : قد مُنحتِ الحياةَ

وخُلّدتِ في نسلكِ الْمُدّخر[2]

1- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 90.
2- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 91.

تضع هذه الأزمنة بين أيدينا حصيلة معرفيّة عن مقاييس زمن الخطاب الخاصّ بالشّاعر، فالخريف (الزّمن الأوّل) أسهم في إنتاج أسباب الدّعوة والخطاب فهو المثقل بالأسى والضّجر وهو رمز الموت والرّماد، أمّا الشّتاء (الزّمن الثّاني) فقد شكّل استجابة لهذه الأسباب وبدءًا للنّهوض بهذه الدّعوة وإنعاشًا لذاكرة المخاطب في حضور حدث أساسيّ ثوريّ متّجه نحو المستقبل، فكان الرّبيع (الزّمن الثّالث) هذا المستقبل الموعود الحافل بالأحلام والألحان، ومخلّد هذه الدّعوة جيلًا بعد جيل.

هذا زمان الخطاب أمّا مكانه فأمكنة كثيرة ومنها: بين الفجاج، فوق الجبال، تحت الشّجر، الكون، الأرض وغيرها ممّا ظهر في القصيدة:

وَدَمدَمَتِ الرِّيحُ بَيْنَ الفِجَاجِ

وَفَوْقَ الجِبَال وَتَحْتَ الشَّجَر

فصدّعت الأرض من فوقها

وأبصرت الكون عذب الصور

وَأَعْلَنَ في الْكَوْنِ أَنَّ الطُّمُوحَ

لَهِيــبُ الْحَــيَاةِ وَرُوحُ الظَّفَر

إِذَا طَمَحَتْ لِلْحَيَاةِ النُّفُوسُ

فَـــلا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدَرْ[1]

دوّى خطاب الشّاعر في الطّرقات والمنخفضات وفوق الجبال وتحت الشّجر فلم يستقرّ في أيّ مكان ولم يهدأ له بال حتّى شقّ التّراب وخرج يبصر كونًا طموحًا سعى نحو الظّفر، هذه الأمكنة الّتي جال فيها الخطاب ليست رؤى عاديّة، وليست مسرحًا بسيطًا كان يمكن أن يتمّ في أيّ مكان آخر هي أمكنة اختيرت بعناية لتصبح مكانيّتها حملًا ثقافيًّا يشمل كلّ مساحة جغرافيّة تقع فيها المنخفضات والسّهول والتّلال والجبال والمساحات الخضراء واليابسة حملًا يمتدّ نحو الأوطان ذات النّفوس الحرّة الأبيّة السّاكنة فيها.

1- الشّابي، أبو القاسم، م.ن، ص 94.

خاتمة البحث

تولّى هذا البحث قراءة حضور المتكلّم والمخاطب والموضوع في قصيدة «إرادة الحياة» للشّابي، ولعلّ أهمّ النّتائج الّتي يمكن أن نتلمّسها في ذلك هي:

1 – أنّ الشّاعر لا ينفي غيابه عن النّصّ الشّعريّ، حيث وقف صلة وصل بين المتلقّين على اختلاف مكانتهم الاجتماعيّة، وكان مؤمنًا بأنّ شعريّته المقاومة ستحقّق نبوءتها الثّقافيّة جيلًا بعد جيل.

2 – أنّ الشّاعر اهتدى من خلال الضّمير المفرد للمتكلّم إلى اتّباع استراتيجيّة بنّاءة تنتصر لموقفه وتنال ممّن ينكره.

3 – أنّ حضور المتكلّم في كلامه كان مقياسًا لوعيه ثقافة الجماعة والتّأثير فيها.

4 – أنّ حضور المخاطب بوصفه هويّة ذات إمكانيّة ثقافيّة أو عقليّة هو حضور لحدث التّلقّي الّذي يظلّ يتحرّك مع الزّمن دونما توقّف أو استقرار.

5 – أنّ حضور الموضوع يشهد على وجود رسائل إلى العالم تتخطّى الزّمان والمكان الّذي نشأت فيه.